الفقـــراء والتعليم

للأستاذ محمد عطيه الابراشى

هل الفقراء ليسوا فى حاجة الى التعليم ؟

يقول روسو فى مقدمة كتابه "أميل" "الفقراء ليسوا فى حاجة الى التعليم" وهو يقصد بهذا أنهم ليسوا فى حاجة الى نوع التعليم الذى يتعلمه الأغنياء ، ومع هذا فالتربية الطبيعية التى نادى بها روسو ينبغى أن تعد الانسان لجميع شؤون الحياة من غير تفرقة بين الأغنياء والفقراء فى التعليم ، فالغنى قد يصبح فقيرا والفقير قد يصير غنيا ، فلا معنى لجعل التعليم مقصورا على طبقة دون أخرى ، وقد اختار روسو تلميذه "أميل" من أسرة غنية ليكون منه رجلا ، وفى نظره أن الطفل الفقير يستطيع أن يصير رجلا بنفسه ، ولنفسه لهذا قال : " الفقراء ليسوا فى حاجة الى التعليم " ، أما نحن فنرى أن نعطى الفقير الفرصة كما أعطيناها الغنى وأن يعلم كل منهما التعليم الذى يميل اليه ، وألا يكون الفقر عقبة فى سبيل تعليم الفقراء ، وإننا نريد من تعليمهم أن يكونوا رجالا يقدرون قيمة الوقت ومعنى العمل وأداء الواجب وأن تكون منهم أعضاء ينفعون أنفسهم وبلادهم . فهؤلاء الأطفال المساكين أبناء الأسر الفقيرة هم من أبناء الانسانية ، وفى حاجة الى من يدافع عنهم ويطالب بحقوقهم ويعمل لصالحهم ، فقد نجد بينهم نفوسا طاهرة وعقولا ذكية ولكنها مهملة لا تجد من يصلحها ويخرج ثمارها ويظهر ما خفى فيها من نبوغ وعبقرية ومهارة وحكمة . قد تظهر فى الطفل الفقير علامات الذكاء من الطفولة ، ولكن ما الفائدة من ذكائه إذا أهملناه فى الوقت الذى ظهر فيه الميل وحب التعليم ؟ انى أشبه سد الطريق فى سبيل من يرغب فى التعلم من الفقراء فى الوقت الذى يشعر فيه بحب العلم والدراسة برجل أعطى طفلا قطعة من الخبز أو الحلوى فاستلذها الصغير فمد يده يستزيده من فضله كى يشبع نهمته فضربه على يده وقال له :

"إنى أعطيتك لقمة ، ويجب أن تكفيك هذه اللقمة ما حييت فاذهب الى حال سبيلك" .

وقد أخطأ روسو فى إهمال حق الفقراء فى التعليم ، وقد نسى أن الفقراء أشد حاجة الى التربية والتعليم من الاغنياء ، فالاغنياء قد يجدون من وسائل التربية المنزلية ما يغنيهم عن التربية المدرسية ، ويستطيعون الاعتماد على ثروتهم فى تعليمهم وحياتهم ، ولكن الفقراء قد حرموا التربية المنزلية وليس لديهم شىء يعتمدون عليه ويساعدهم فى كسب العيش فى حياتهم لقد حرموا التربية المنزلية فيجب ألا يحرموا التربية المدرسية ، لقد حكم عليهم الفقر فيجب ألا يحكم عليهم أيضا بالجهل ، لقد حرموا المال فيجب ألا يحرموا العلم ، وليست هذه بالمنزلة الأولى ، روسو ، فله كثير من المغفورات ، فاذا لم يستطع الآباء أن ينفقوا على أبنائهم

وبناتهم فى سبيل تعليمهم ، فمن الواجب على الدولة أن تقوم بنفقاتهم فى تعليمهم ، وإذا لم نستطع أن نوجد المدارس الكافيـة لهم ففى الاستطاعة أن نعلمهم ولو فى الخيام ، فتعليم الشعب خير وسيلة لترقيته ، فاذا أردنا رقى مصر وتقدمها والنهوض بها وتحسين مستوى المجتمع من كل ناحية من النواحى فليس أمامنا سبيل سوى التربية والتعليم ، ولا ينكر أحد الفرق الكبير بين الجاهل والمتعلم ، وأن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى الأمة وتحسين حال الفقراء منها ، وجعلهم أسعد حالا وأقوى صحة وأحسن نظاما .

ان التربية واجبـة لتنمية عقول الفقراء واسعادهم . وتعميم التعليم هو الأساس القوى الذى يجب أن يفكر فى تنفيذه كل من فى قلبـه ذرة من الحب والاخلاص لمصر . وليس من الصعب تحويل الأميين الى متعلمين والنهوض بالجهلاء الى طبقـة العلماء ، فبالمدارس وتعميمها نستطيع أن نقضى على الأمية السائدة فى البلاد فى بضع سنوات ، وفى بضع سنوات فقط . وان أرقى أمة هى التى تتخذ أحسن الطرق فى التربية والتعليم . ولا ينكر أحد ان أرقى الأمم هى الأمم المتعلمة التى توجب على كل فرد أن يتعلم وتهيىء له الفرصة التى بها يتعلم التعليم الذى يلائمه ، التعليم الذى يقود الشخص الى عيشة راضية ، وحيـاة شاملة ، التعليم الذى يؤدى الى الكمال ، فلا خير فى علم لا يؤدى الى الفضيلة . فالتعليم خير منحة يمكن أن يمنحها الفقراء .

والفقير فى حاجة الى العلم لأن حيـاة الجهل حياة الموت ، والعلم وسيلة الحياة ، وهو الجناح الذى نستطيع أن نطير به الى السماء كما قال شكسبير . قال بسمارك بعـد الحرب السبعينية " لقد غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة " ، فاذا أردنا الخير لمصر جعلنا التعليم عاما شاملا فقراءها وأغنياءها من غير تفرقة بين هؤلاء وأولئك ، وعنينا بالفقراء لأنهم العمود الفقرى الذى تعتمد عليه الأمم ، يجب أن نعلمهم ان أردنا أن تتبوأ مصر مركزها اللائق بين الأمم ، فان العلم سبيل الغنى والرقى . وهو أكبر وسيلة لرفع المستوى الصحى والاجتماعى ، والخلقى والعملى والاقتصادى . واو علمنا الأمة تعليما حقا لارتفع مستواها وقضينا على الجهل والفقر والمرض . يجب أن نعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ولا نسمح للأطفال بالعمل إلا بعد التعلم . يجب أن تعلمهم حتى تعدهم للكسب ولحياة أحسن من الحيـاة التى يعيشونها غير متعلمين . ويجب أن تعلم الأمة علم اليقين أن كل طفل سواء أكان فقيرا أو غنيا قد حصل على فرصة عادلة هى فرصة التعلم الذى يؤدى الى مستقبل سعيد وحياة طيبة وفى اعتقادنا أنه اذا صح أن تقول الحكومة للرجل الغنى الذى لا أطفال له " يجب أن تدفع ضريبة للتعليم بالمجان " فما لا ريب فيه أن تقول للأب الفقير الذى لديه أطفال " يجب أن ترسل أبناءك وبناتك الى المدرسة " .

ان العالم سائر بنجاح نحو التفكير فى الانسانية ، ولا وسيلة لانقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة إلا بالعلم . فالعلم هو السبيل الوحيـد لسعادة الشعوب والأمم . ولم يكتب توماس

جيفرسون " الرئيس الثالث للولايات المتحدة الأمريكية أثمن من هـذه الكلمات " " إن التعليم الذى سيعم كل طبقة من أبناء شعبنا من أغناهم الى أفقرهم سيكون أول شئ يتعلق بالجمهور الذى أحبه، وأفكر فيه . ان الشعب الذى ينتظر أن يكون حرا جاهلا فى وقت واحد، شعب ينتظر ما لم يحدث ولن يحدث . فحيثما تكن الصحافة حرة ويكن كل انسان قادرا على القراءة والكتابة تكن الديموقراطية آمنة " .

وان نظرة واحدة الى تاريخ العالم تبرهن لنا على أن كثيرا من العظماء والأدباء والعلماء والأطفال من قادة الفكر والعمل كانوا فقراء ، فتعلموا وثابروا حتى وصلوا الى أوج العظمة والرفعة . ومنهم أبو نصر الفارابى ، والشيخ محمد عبده ، وعلى باشا مبارك ، وهايل العبرى ، وصمويل جونسون ، واللورد ماكولى ، وشارلز دكنز ، وابراهام لنكلن ، ورمزى ماكدونالد ، واللورد بركنهد ، والمستر روبرت دوجن .

ان التعليم حق توجبه الانسانيـة ، فكما أن من حقوق الانسانيـة الحياة ، والملكية ، والحرية ، فكذلك التعليم حق من حقوق الانسانيـة ، يجب أن لا يختص به فرد دون آخر وأن يعم الفقراء والأغنياء ، بنين وبنات ، مدنيين وقرويين ، بحيث تتاح فرصة التعليم لكل مصرى ومصرية .

فالتعليم هو الحق الأول الذى توجبه الانسانية ، وتستدعيه المدنية ، ويتطلبه حق المساواة بين الأفراد فى الفرص والتعليم . فليس من الإنسانية أن يحرم هؤلاء الأفراد لأنهم أغنياء ويحرم هؤلاء التعليم لأنهم فقراء ، ولو اقتدينا ببعض الأمم الراقية فى اتاحة الفرصة للأذكياء من الفقراء التعليم ، فى أن تتولى الدولة الانفاق عليهم فى جميع مراحل التعليم ، على أن يردوا لها ما أنفقته عليهم مدة دراستهم بعد الابتداء فى الحياة العملية — لقمنا بأكبر عمل تقتضيه الانسانية ، وتحتاج اليه مصر فى العصر الحاضر ، فان مصر إن كانت فى حاجة ، فهى فى حاجة كبيرة إلى تعميم التعليم ، فى أقل وقت ممكن ، فبالتعليم والتعليم وحده يمكن اصلاح مصر من جميع وجوه الحياة ، فنحن لا نقول فى فتح مدرسه اغلاق سجون فحسب ، بل فى فتحها نتطلب حياة كاملة بأجلى معانيها فى الحياة المصرية والمجتمع المصرى .

حقا سيبارك الله الشعب الذى يزيل أوديته وقراه بالمدارس ، فيبارك الله الجيـل وسيبارك الله الأغنياء الذين يخصصون شيئا من ثروتهم للتعليم ، فيحيون به أرواحا أماتها الجهل وقتلتها الأمية ، وقضى عليها الفقر ، ولا ضريبة أكثر شرعية من الضريبة التى توضع وتجبى لازالة الجهل واثارة العقول واحياء الأرواح ، وتكوين رجال ونساء يخدمون بلادهم وأنفسهم .

إن مصر قد مضى عليها سنوات ، وسنوات ، وهى تصرخ وتستغيث بمن يعمم التعليم فيها ، ولكن هل تجد من يغيثها ويتقذها ويداويها من دائها ، داء الجهل الذى طالما اشتكت

منه، وكثيرا ما نألمت منه ؟ نعم ستجد أبناء برره ، أوفياء مخلصين، يتألمون لألمها ويشعرون بشعورها ، ويحققون رغبتها ، وينقذون الفقراء بها من شر الجهل المنتشر فيها ، اذهب إلى القرى والأحياء الوطنية فى كل مدينة من المدن ، ثم انظر فى كل طريق تجد كثيرا من الأطفال الفقراء فى سن التعليم أهملوا ليتربوا فى الطريق ، أو يسألوا الناس، فاذا ما كبروا وبلغوا مبلغ الرجال اتخذوا النشل والسرقة والإجرام حرفة لهم، وفى النهاية يسجنون ، ولو قمنا بتعليمهم تعليما حقا لأنقذناهم من الفقر وذل السؤال واقتصدنا كثيرا من الأموال التى تنفق على المحاكم والسجون . لو علمناهم لقلت السجون، وقل عدد المحاكم، فهل نلومهم أو نلوم أنفسنا لأننا أهملناهم ولم نعلمهم التعليم الذى يلائمهم ، ويعدهم بأن يعيشوا عيشة راضية ؟

يجب أن يأخذ التعليم قسطه من العناية فى نظر الشعب ، وأن يوقن كل منا أن التعليم يحل أرفع مكان وأكبر مركز فى عقول الأمة . يجب أن يعمل كل وطنى على أن ينال كل فقير نصيبه الوافر من التعليم ، فعلى الأغنياء واجب مقدس هو التبرع بنفس راضية لتعميم التعليم ، وعلى الفقراء من الآباء واجب آخر لا يقل عن واجب الأغنياء هو أن يرسلوا أبناءهم إلى المدارس ليتعلموا، وأن يحملوهم على المواظبة ليتنفعوا بالدراسة ، إن مصر تنتظر من كل مصرى أن يقوم بواجبه نحو القضاء على الأمية ونشر العلم وتعميم التعليم بين الفقراء والأغنياء على السواء .

ولما كانت الكثرة فى القرى والأرياف لا تقدر قيمة التعليم وجب أن نجبرهم على تعليم أولادهم ومن حيث إن روح حب الخير والاحسان التى كانت منتشرة فيما مضى بين الأغنياء فى مصر يوم ان كان كثير من محبى العلم والدين يقفون أوقافا لنشر العلم والتعليم للأزهر ومجالس الأوقاف — قد أصيبت معدومة تقريبا فلا سبيل للحصول على المال الكافى لتعميم التعليم إلا فرض الضرائب، ونحن على ثقة بأن الأمة متطلعة الى التعليم وهى تقابل هذا الأمر بالثناء والتشجيع .

وإذا قلنا بتعليم الفقراء التعليم الابتدائى بالمجان — فاننا نقول يجب أن يعلم الأذكياء منهم التعليم الثانوى ، ثم التعليم العالى، ولو بالدين على أنفسهم، حتى تنتفع الأمة من مواهبهم، وقد اعترف المستر تشرشل فى كتابه " المعاصرون والعظماء " بأن من الواجب إعطاء الفرصة للأذكياء من أبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة فى كل سبيل من سبل التعليم والحياة ، ثم يقول " اننا لا ندرى ماذا كنا نفعل اولم يظهر من بيننا أمثال هؤلاء العظماء من أبناء الفقراء كاللورد بركنهد ، والمستر رمزى ماكدونالد ، وغيرهما من عظماء انجلترة " .

إننا لا نؤيد الرأى القائل بأن التعليم العالى للفقراء خطر على المجتمع ، ولا نؤمن بهذا أولئك المحبين لأنفسهم، القائلين بحرمان الأمة مجهود العنصر العامل المثابر فيها إن كان هناك من يقبل بحرمانهم التعليم العالى ، إن الأمة بأفرادها سواء أكانوا فقراء أم أغنياء،

فاذا وقفنا بالأذكياء من أبناء الفقراء عند باب التعليم الثانوى أو العالى كنا حجرا عثرا فى سبيل تقدم الأمة ورقيها . ان المجتمع يحكم عليه بالمدنية أو التأخر بالنظر الى مستوى الفقراء فيه . ولا يعد المجتمع راقيا الا إذا فكر فى حقوق هذه الطبقات الفقيرة من المصريين .

إن الفقراء يشعرون بما يشعر الأغنياء، ويحسون مايحسون ، ولهم من الحقوق مالهم، وعليهم ما عليهم ، فاذا شجعنا الأغنياء على التعليم العالى وجب أن نشجع الأذكياء من الفقراء عليه ، ولافرق بين الغنى والفقير إلا أن ذلك غنى وهذا فقير ، ولاعيب فى الفقير إلا أنه فقير ، إن كان الفقر يعد عيبا ، يجب أن نحل لهم ما أحل لغيرهم ولانحرم عليهم ما أحل الله لغيرهم ، فالناس سواسية كأسنان المشط ، ولافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

فاذا قرأنا التاريخ وجدنا أن العظمة كثيرا ما تنمو فى الأكواخ، وتجد تربة صالحة بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة ، يجب أن نعلم الأذكياء من الفقراء التعليم العالى كى لا يقيد ذكاء طفل مصرى، وقد نجد من بينهم رجلا عظيما كابراهام لنكولن ، أو مصلحا مثل محمد عبده ، أو دكتور أو مثلا للعظمة العقلية مثل سعد زغلول "واللورد ما كولى" أو مثلا للأدب مثل المنفلوطى "جموبل جونسون" ، أو كاتبا عالما مؤرخا مثل "ه . ج ويلز" أو كاتبا روائيا عظيما مثل " جورج برنارد شو " أو كاتبا قصصيا مثل " أرنولد بنت "

يجب أن يعطى الأذكياء من أبناء الفقراء الفرصة ليتعلموا التعليم الابتدائى ثم الثانوى ثم الجامعى ، حتى ينالوا نصيبهم من الحياة ، فتنتفع الأمة بجهودهم وعزيمتهم وصبرهم، لقد حرموا العناية المنزلية فيجب أن نعوضهم ما فقدوه بالتربية المدرسية العلمية اذا سمحت لهم مواهبهم واستعداداتهم ، واذا أردنا رقى المجتمع المصرى وتحسين مستواه الصحى والاجتماعى والخلقى فليس أمامنا سبيل سوى التربية الحقة والتعليم الصحيح ، فان انصاف المتعلمين خطر على أنفسهم وعلى الأمة والنظام الاجتماعى، ومهما يكلف التعليم من النفقات فهو العلاج الوحيد لتحسين مستوى الشعوب .

يجب أن نشجع الأذكياء أينما وجدوا — ونفتح السبل أمامهم، ولانضع العقبات فى سبيلهم واذا وجد منا طائر وابتدأ يطير يجب أن نساعده على الطيران ، ولا نقص أجنحته بالنقد أو عدم التشجيع . إن الفقير الذكى اذا تعلم تعليما جامعيا ارتفع مركزه ومستواه فى الحياة ، ومن مصلحة الشعب أن يرتفع مستوى المعيشة والحياة الصحية والمساكن بين الفقراء ، فمن حياة الفقراء ومعيشتهم يمكن الحكم على مستوى الأمم، ولا تزال انجلترا تعد من العار عليها أن يكون بين أحياء السكان فى الناحية الشرقية من لندن أحياء قذرة ضيقة الطرق .

إننا لانريد تشجيع الأذكياء من أبناء الفقراء على التعليم العالى للمحافظة على حاضرنا بل لاعادة ماضينا ، ماضى قدماء المصريين ، وتحسين مستقبلنا .

ولو استطعنا أن نكلف مفتشى التعليم الالزامى اختيار أذكى أطفال المدارس الالزامية بكل أمانة واخلاص ، ووجدنا — مثلا — فى كل مدرسة طفلا واحدا ذكيا ، لتكون لدينا

أطفال أذكياء فى عدد المدارس الإلزامية وكانت لا تقل عن "٤٥٠٠ مدرسة" سنة ١٩٤٤ فى جميع أنحاء القطر المصرى ، إننا لو أخذنا هؤلاء الأطفال الأذكياء والحقناهم بالمدارس الابتدائية بالمجان ، أو أنشأنا لهم مدارس خاصة بهم تدعى مدارس الأذكياء ، وتعهدناهم بالتربية والتعليم الى آخر مرحلة ممكنة من التعليم العالى ، لتكون لدينا نخبة كبيرة من شبان تستطيع مصر أن تنتفع من مواهبهم وذكائهم ومقدرتهم وكفايتهم فى شق طريق الحياة ، والنهوض الى مستوى الأمم المتحضرة ، وعلى أكتاف هؤلاء الذين لا يعتمدون على شىء سوى ذكائهم ومواهبهم الفطرية ، ومقدرتهم العلمية ، يمكننا أن نستعيد مجد آبائنا الأقدمين . وأن من يوفقه الله لتنفيذ هذه الفكرة يقوم بأداء أكبر خدمة لترقية الشعب .

وبعد فنرجو أن يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم بمصر وتصير نسبة المتعلمين مائة فى المائة ، لا لنحافظ على حاضرنا ، بل لنعيد ماضينا ، ماضى المصريين القدماء والحضارة المصرية القديمة ، وننهض بمستقبلنا .

ولله در المرحوم شوقى بك حيث قال فى قصيدة له :

هل علمتم أمة فى جهلها ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها إنما السائل من لون الاناء
نفذوا العلم على أعلامه واطلبوا الحكمة عند الحكماء
وأقرأوا تاريخكم واحتفظوا بفصيح جاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما خلقت نصرتها للضعفاء
واطلبوا المجد على الأرض فان هى ضاقت فاطلبوه فى السماء

وإن كلمتى التى بها أرفع الصوت عاليا :

التعليم هو الوسيلة الوحيدة لرقى الأمة ، فعلموا الأمة جميعها فقيرها وغنيها ، والتقطوا الأذكياء من فقرائها ، وعلموهم فى جميع مراحل التعليم ؛ ولو بالدين على أنفسهم حتى تتبوأ مصر مكانها اللائق بها تحت الشمس ، علموا الأمة ! علموا الأمة ! علموا الأمة !

محمد عطيه الابراشى
المفتش العام بوزارة المعارف العمومية